9

الباب التاسع

عمان في السبعينات

طرق شخص ما باب دارنا، بعد منتصف ليلة 22 حزيران 1971، عندما كان كل أفراد أسرتي نياماً. وقدم نفسه على أنه أحد أفراد المخابرات العامة الأردنية، ثم قال:

"أود أن أتحدث إليك لمدة خمس دقائق".

لقد قدم هذا الشخص مع مجموعة من الأشخاص في سيارة فولكس فاجن وتصحبهم سيارتا لاندروفر فيهما عدد من الجنود. كما كان في صحبتهم أحد أفراد فتح ممن أعرفهم، كان قد قبض عليه قبل عدة أيام.

لقد أدركت أن حديثنا سيستغرق أكثر كثيراً من "خمس دقائق"، لذلك قمت بتغيير ملابسي بسرعة. صاحت والدتي فيهم بصوت حاد، كما طلب منهم والدي أن يذهب معي، إلا أنهم لم يكن لهم آذان يسمعون بها. لقد قدرت أنني لن أعود إلى المنزل لفترة طويلة قادمة، لذلك وقعت على شيك أعطيته لوالدي.

أخذوني إلى السيارة الفولكس فاجن حيث إلتزموا الصمت حتى وصلنا إلى المقر الرئيسي للمخابرات العامة الأردنية. هناك وضعت في حجز إنفرادي. لقد كان هذا الإعتقال جزءاً من تنفيذ "قانون الأحكام العرفية". في هذا الوقت كان العديد من كوادر وأعضاء منظمة التحرير الفلسطينية والمنظمات الفلسطينية قد تم القبض عليهم من قبل السلطات الأردنية.

❖ ❖ ❖

قبل ذلك بتسعة أشهر، جرت أحداث أيلول، التي بدأت في 16 أيلول 1970.

إنعقد مؤتمر القمة العربية في القاهرة في 28 أيلول 1970 لوضع حد لهذه المشكلة. كان ياسر عرفات في هذا الوقت داخل عمان، التي كانت محاصرة، وكان قد تم مهاجمة وحصار العديد من المدن الأخرى في الأردن، وكذلك المطار. كان من الصعب التحرك من مكان لآخر في المدينة. في ظل هذه الظروف، قدم إلى عمان وفد الجامعة العربية لمقابلة ياسر عرفات. وتمكن من تأمين مغادرة ياسر عرفات من مكان تواجده ومن ثم إلى مطار عمان ومنه إلى القاهرة، لحضور مؤتمر القمة العربية.

بينما كان ملوك ورؤساء الدول العربية يغادرون القاهرة، بعد إنتهاء مؤتمر القمة العربية، توفي فجأة الرئيس جمال عبد الناصر. لقد كان هذا الموت والرحيل المفاجئ للرئيس جمال عبد الناصر خسارة فادحة للوطن العربي.

تكونت فيما بعد لجنة من جامعة الدول العربية، كما أرسلت قوات تحت علم الجامعة العربية إلى عمان، وفض الإشتباك وتحرك الفدائيون الفلسطينيون إلى منطقة جبلية حرجية في شمال الأردن. خلال هذه الفترة تم إعتقالي لفترة قصيرة تصل إلى عشرة أيام. كما تم القبض على العديد من الناس وإعتقالهم، وبما أنه لم يكن لهؤلاء الناس دخل بالفدائيين وبالمنظمات الفلسطينية، فقد تم فيما بعد إطلاق سراح معظمهم.

بعد إنتقال القوات الفلسطينية إلى المناطق الجبلية في الشمال، بدأت تنظيم نفسها في الأحراش، وتوثيق صلاتها بالقوات الفلسطينية في كل من سوريا ولبنان. أما من بقي منا في عمان، فقد بدءوا في إعادة تنظيم أنفسهم، واضعين قيوداً أكثر على سرية التنظيم، حيث كان يتعين علينا أن نكون أكثر حذراً من ذي قبل.

❖ ❖ ❖

من أول يوم وُضعت فيه في الزنزانة فقدت الإحساس بالوقت. كانت هذه الزنزانة تضيئها لمبة صغيرة، وكان هناك شباك صغير بالقرب من السقف. ومن خلال هذا الشباك الصغير كنت أعرف النهار من الليل. ومع مرور الأيام عرفت أن هناك اثنتا عشرة زنزانة على إمتداد نفس الممر واثنتا عشرة زنزانة أخرى في طابق آخر.

خلال الأسابيع الثلاثة التي قضيتها في زنازين مقر المخابرات العامة الأردنية في عمان، دخل وخرج من الزنازين العديد من المعتقلين السياسيين واحداً تلو الآخر. كانوا ينتمون إلى حركة فتح والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين وغيرها، ممن لم أكن أعرفهم. في بعض الأحيان كان يُحشر في هذه الزنزانة الصغيرة ما يصل إلى عشرة أشخاص. وفي هذه الحالة، لم يكن أيٌّ منهم يستطيع النوم إلا بمد رجليه إلى أعلى الحائط. في هذا المقر إستمرت التحقيقات ليل نهار، تحت التعذيب الشديد.

في إحدى الليالي أُخذت لأجد نفسي أمام عدد كبير من كبار الضباط المحققين حيث بادرني أحدهم، الذي يبدو أنه أعلاهم رتبة، قائلاً:

"أنا أعرف تاريخك جيداً، فراتبك مرتفع، حيث أنك مهندس ميكانيكي، لذلك فإنك تعيش حياة رغيدة. لقد وصلنا العديد من الإلتماسات لإطلاق سراحك من العديد من الناس ممن نحترمهم."

وعلى غير المتوقع كان سلوك هؤلاء الضباط مهذباً جداً!!!

وأكمل :

" أريدك أن تجيب على إستفسارات صغيرة، وعندئذ سنطلق سراحك غداً. نحن نأسف جداً لأنك ضُربت وعذبت، نحن نريد تحرير فلسطين والأقصى مثلك ومثل بقية العرب. هذه الليلة أريدك أن تجيب على ثلاثة أسئلة فقط. فإذا أعطيتني الإجابة الصحيحة فإنه سيطلق سراحك غداً أو بعد غد."

لقد إستخدموا العصا والجزرة .

ولقد أجبت: "بالطبع، سأخبرك بالحقيقة."

وبدأ التحقيق.

- " هل تعرف أبا إياد؟"

- "نعم أعرفه."

كانوا أخبروني قبل أن أجيب على أسئلتهم أنهم سيضربونني خمسين عصا في كل مرة تكون إجابتي غير صحيحة. أبو إياد هو الإسم الحركي الذي يطلق على أحد قادة فتح، وكان يُعرف "بالرجل الثاني" بعد ياسر عرفات.

- " ما هو إسمه الحقيقي؟"
- "صلاح خلف."
- "متى قابلته آخر مرة؟"
- "كانت في شهر أيلول الماضي، أي منذ تسعة شهور مضت. كانت تلك آخر مرة قابلته فيها!!"

فصاحوا فيّ: "هذا كذب."

كان ردي عليهم ' لا أنا لا أكذب." وأصررت على أنني قطعت علاقتي بحركة فتح قبل شهر أيلول.

- الأخ أبو إياد (صلاح خلف).

لقد كانوا يعرفون أنني عضو في لجنة قيادة حركة فتح لمنطقة عمان. ولكن كانت النقطة المهمة بالنسبة لهم هي معرفة ما كنت

أقوم به من مهام. كان هدفهم هو التأكد مني إذا ما كنت قد شاركت في عملية عسكرية أم لا.

لقد إستمررت في الإجابة بأنني لا أعرف شيئاً.

في الحقيقة كنت أعرف الكثير لأنني كنت عضواً في لجنة قيادة حركة فتح لمنطقة عمان، وليس من الصحيح أنني لا أعرف شيئاً.

عندما إستمررت في الإنكار، بدأ في القول :

"إخرس."

"سوف أقتلك."

" وحتى عندما أقتلك لن يعرف بذلك أحد، وإذا ما سكبت الأسيد على جسمك فإنه سيذيبك وستختفي. وعندها يمكنني أن ألقيك في البالوعة."

بعد فترة تم إحضار شخص، هو نفسه الذي صاحب الضابط عندما قبضوا علي، وسأله الضابط:

- "هل تعرف هذا الشخص؟"
- " نعم، أعرفه، إنه بكر."
- "هل قابلت أبا إياد حديثاً؟"
- "نعم، لقد قابلته."
- " منذ متى قابلته؟"
- " في الشهر الماضي تقريباً."
- أين ؟

فأخبرهم عن المكان.

- "مع من قابلت أبا إياد؟"

- " مع بكر، وهو الذي إصطحبني إليه."

عندها صحت فجأة، بصوت مرتفع:" إنه كاذب." " إنه يكذب."

عندئذ تم إيقاف الإستجواب لفترة، وأمروا الحارس بأن يُعيد الرجل إلى زنزانته.

وأرسلت أنا إلى "ميدان التعذيب."

زمجر الضباط: " إستمروا في ضربه حتى يغيب عن الوعي."

لقد تلقيت العديد من العصي والضربات واللكمات حتى أغمي علي تقريباً. لقد كانوا يضربونني بعصي من الخيزران على رجليّ وعلى جميع أنحاء جسمي وعلى وجهي، كما كان هناك عدة رجال يمطرونني باللكمات .

لقد إستمر التعذيب كل يوم لمدة ثلاثة أسابيع، حيث كانوا يعذبونني قبل وأثناء التحقيق، ثم يعيدونني مرة أخرى إلى الزنزانة.

لقد تعرض للتعذيب كل المعتقلين هناك، كانت الصرخات تدوي ويسمعها كل من في الزنازين. وعندما كانوا لا يقومون بتعذيب أحد، كنا نسمع شريطاً مسجلاً عليه أنين المعذبين بصوت مرتفع جداً كجزء من الحرب النفسية.

هنا أدركت أن جسم الإنسان يستطيع أن يتحمل قدراً كبيراً من الضرب والتعذيب.

هناك مثل يقول: "كلما ضُرب الحمار أكثر زاد تحمله."

يبدو لي أن الإنسان يستطيع أن يتحمل حتى أكثر من الحمار!!

كانت "وجبات الطعام" تُقدم مرتين في اليوم، وتتكون من قطعة من الخبز وفنجان من الشاي في الإفطار، وقطعة من الخبز وطبق من طبيخ ما في العشاء. كانت هذه الوجبات غير كافية بالمرة. كما أنني لم تكن لدي شهية لأي طعام لذلك لم أكن آكل إلا النزر اليسير.

لقد أزعجتني الحشرات في الزنزانة، وعلى الأخص "البق والقمل" الذي كان يعشش في فرشة القش البالية، وفي البطانية وفي ملابسي الداخلية. كان البق والقمل يعذبانني طوال اليوم، لكنني تعودت أن "أتعايش " معهما.

لم يكن هناك حمام إطلاقاً. كان هناك وقت قصير جداً مخصص للذهاب إلى دورة المياه، وهناك كنت، في بعض الأحيان، أرش الماء البارد بسرعة على جسمي بدل الحمام.

❖ ❖ ❖

عندما إعتقلت وسجنت لم أكن أفكر بمصير أسرتي، ذلك لأن تفكير السجين في أسرته له تأثير سلبي على تحمله للسجن، مما يجعله ضعيفاً. لذلك قررت ألا أفكر في وضع عائلتي، أو في من يرعاهم، وكيف؟ ولكن كانت هناك فسحة كبيرة من الوقت في السجن حيث تطير القوة التخيلية للسجين بأجنحتها وتحلق في السماء، حتى لو حاول الفرد كبحها.

❖ ❖ ❖

لقد حاولت أسرتي خلال هذه الأسابيع الثلاثة أن تعرف مكان وجودي، إلا أنهم لم يتمكنوا من الوصول إلى أي شيء يدلهم عن مكاني.

كان هناك قادمون جدد إلى الزنزانة بشكل دائم. حيث كان يتم إعتقالهم و إحضارهم، كما أن بعض من كان يتم إخراجهم من الزنازين لم يعودوا إليها مرة أخرى، إذ كانوا يرسلون إلى السجون. وعند وصول القادمين الجدد كان علينا أن نشجعهم لرفع معنوياتهم. لقد كان الأفراد الذين تم إعتقالهم لأول مرة يشعرون بالرهبة في أول يوم في السجن، إلا أننا كنا نعلمهم كيف يتعاملون مع التحقيق.

خلال فترة سجني حاولت قراءة الحالة الذهنية والنفسية للعديد من المعتقلين. كان هناك العديد من الخصال، فهناك الأقوياء الذين يتحكمون، وهناك الضعاف. وهناك المتكلمون وهناك الصامتون... وهكذا.

والآن كيف كنا نتعامل مع التحقيق.

أولاً، يجب أن يكون المعتقل ثابتاً وغير مترددٍ فيما يقوله، ولا يغير أقواله خلال التحقيق من وقت لآخر.

ثانيا، يجب عدم الإعتراف بأي شيء حتى لو تبدى له أن المحققين يعرفون تلك المعلومة.

لقد عاهدت نفسي الإلتزام بذلك. كما نصحت المعتقلين الجدد بإتباع نفس الأسلوب. ولكن، في نفس الوقت، كنت مرناً بعض

الشيء فيما يتعلق ببعض النقاط. فمثلاً كان من المعروف أنني أعمل مهندساً ميكانيكيا لذلك لم يكن هناك داع لإنكار ذلك.

إستخدمنا العديد من التكتيكات لإطالة أمد التحقيق وذلك لتجنب إعتقال زملائنا الذين ما زالوا خارج الإعتقال.

لقد إستطعت، وأنا في الزنزانة، أن أقيم نظاماً للإتصال مع زملائي المعتقلين. كنا نستخدم وقت الذهاب لدورات المياه كوسيلة للإتصال، إذ كان مسموحاً لنا دخول دورة المياه مرتين في اليوم.

كان هناك طريقة أخرى للإتصال، وهي النقر على جدران الزنزانة مستخدمين شيئاً شبيهاً بشفرة مورس.

ومن خلال وسائل الإتصال السابقة وغيرها، كنا نستطيع في كل زنزانة أن نعرف ما يدور من تحقيقات، وما دار ويدور في السجون الأخرى، وحتى ما يدور في العاصمة عمان وغيرها من المدن.

❖ ❖ ❖

إلى المحطة

لقد حدث أثناء وجودي في السجن العديد من الأمور، بعض هذه الأحداث حُفرت في ذاكرتي حفراً، مع أن هذه الأحداث قد مرّ عليها حوالي أربعين سنة، إلا أنني لا ولن أنسى مطلقاً ما مرّ بي هناك، بل أتذكر الآن بعض هذه الأحداث وكأنها حدثت أمس.

❖ ❖ ❖

لما كان قانون الأحكام العرفية هو المطبق آنذاك، فقد كانت المحاكمات العسكرية تعقد كل يوم تقريباً، فمثلاً تمت محاكمة مجموعة من الفدائيين عددها تسعة وثلاثون شخصاً، بصورة جماعية، والمحاكمة لم تأخذ أكثر من ثلاثين دقيقة فقط، وذلك لأن قرار المحكمة كان قد أتخذ سلفاً، وما على القاضي إلا قراءة هذه الأحكام. ما أريد قوله هو أن هذه المحاكمات كانت تتم بسرعة كبيرة جداً.

أما فيما يتعلق بي شخصياً. فلم يتمكنوا من الحصول على أي مستمسك لتقديمي لمحاكمة عسكرية. لقد حاولوا كثيراً إيجاد المبرر لإتهامي ، لقد حاولوا أن يجدوا الدليل على أنني أحد قادة إنقلاب عسكري، إلا أنهم فشلوا في ذلك. لقد كنت أحس بهدفهم في كل كلمة خلال التحقيق . كما حاولوا تلفيق وإلصاق تهم أخرى، إلا أنهم لم يستطيعوا أن يقيموا الدليل الكافي على ذلك، وعلى الرغم من كل ذلك فإنهم لم يطلقوا سراحي وبقيت رهن الإعتقال. كان هدفهم من ذلك هو الإبقاء على أكبر عدد ممكن من الأشخاص، و أنا منهم، وذلك لإعادة التحقيق معهم فيما بعد. بكلمات أخرى وأساليب أخرى فإن من سبق إحضارهم إلى هذا المعتقل ينقلون إلى سجون ومعتقلات أخرى. كانت الأولوية لديهم التحقيق مع "الزبائن" الجدد. هذا كان يؤدي إلى الإعتقال لفترات طويلة دون محاكمة. وبإستمرار الإعتقال كانت تتوالى التحقيقات. لقد إعتقل البعض لمدد وصلت إلى خمس سنوات أو يزيد !!

تم نقلنا من سجن القيادة العامة للمخابرات إلى سجن المحطة، وقد سمي بهذا الإسم لأنه كان يقع في ضاحية المحطة والتي بدورها أخذت إسمها لوجود محطة القطارات الوحيدة في عمان.

عند وصـــولنا إلـى ســـجـن المحطـة كـــان علينـا أن نمـر خـــلال إجراءات الدخول، حيث قدم لكل معتقل شئً ما يُشبه البطانية، كما تم قص شـعـرنـا. في تلك الأثناء، ومـن حـسـن حظـي، رأيت إحـدى السيدات التي كانت تزور إبنها في السجن فأعطيت للحلاق، وهو كذلك سجين سياسي، ورقة كتبت عليها رقم تلفون أسرتي، ورجوته أن يطلب من السيدة أن تتصل بأسرتي بالهاتف، وتخبرهم بأنني نُقلت إلى سجن المحطة، وكانت المرأة تبدو عليها البساطة، ولست أدري كيف قام الحلاق بإعطائها الورقة.

كانت الزنزانة القذرة جداً التي وضعت بها مع غيري عبارة عن قبو تحت الأرض، ويبدو أن الأفراد الخطرين قد وضعوا بها. كانت أبعاد الزنزانة 4–5 أمتار. كانت مظلمة بدون أي نوافذ، ولا يدخلها الهواء الخارجي. كان ضوء اللمبة الصغيرة جداً الموجودة بالزنزانة لا يكفي لرؤية وجوه بعضنا البعض. لقد وجدنا بالزنزانة بعض الأفراد الذين أُحضروا قبلنا. كان بعضهم قد مكث في هذه الزنزانة ما يقرب من عشرة أيام، وبعضهم قد أتى في اليوم السابق فقط.

بعد ما يقرب من ساعتين من دخولي هذه الزنزانة القبو، ناداني الحارس:

"هل أنت بكر؟" "ما هو عملك؟"

فأجبت: "أنا مهندس ميكانيكي."

إلا أن مظهري كان يشبه منظر الشحاذ بقميص ممزق، ولحية طويلة غير حليقة، وشعر طويل منكوش.

- " لقد أرسل لك أحد أبناء عمومتك طعام الغداء."

كان الغداء مشترىً من أحد المطاعم المعروفة في عمان، وملفوفاً بورق نظيف. أخذته وعدت نازلا مرة أخرى إلى داخل الزنزانة.

أخيراً عرفت أسرتي مكان وجودي. عليّ أن أشكر تلك السيدة القروية البسيطة، إذ ما أن أخذت الورقة التي بها رقم هاتف أسرتي حتى هاتفتهم فوراً، وبالتالي فإن أسرتي قد عرفت فوراُ وبسرعة أنني الآن في سجن المحطة.

في ذلك الوقت كانت عمان تخضع لقانون الطوارئ والأحكام العرفية. وتحت هذه الظروف القاسية كان يصعب على السيدة أن تجري تلك المكالمة التليفونية، حيث كان الناس يخافون ويشكون في بعضهم البعض. إلا أن السيدة الوطنية جازفت وقامت بالإتصال بأسرتي. قد يبدو هذا الأمر تافهاً، إلا أن هذه الواقعة تُظهر بوضوح كيف كان الشعور الوطني يغمر الناس. أين هي الآن، بحق السماء؟ كم أود أن أراها ولو مرة واحدة لأشكرها!!.

لقد كانت كمية الغداء كبيرة جداً، لا أستطيع أكلها لوحدي. كان يتكون من الكباب والمشاوي والخبز. لقد تناولت ذلك الغداء مع زملائي من المساجين في القبو، كانت تلك أول مرة منذ ثلاثة أسابيع أحصل فيها على وجبة محترمة.

في اليوم التالي أتت أسرتي لرؤيتي. كانوا ثلاثة: والدي ووالدتي وزوجتي. أُخذت من الزنزانة القبو الموجودة تحت الأرض إلى البوابة حيث قابلتهم. لقد كنت في غاية الدهشة لأن كل ذلك تم بشكل سريع مفاجئ وعلى غير ما توقعت. شكراً لتلك السيدة الوطنية الجريئة.

كان كل منا يذرف الدمع. تبادلنا التحيات والقبلات. بذلوا قصارى جهدهم أن لا يُظهروا حقيقة عواطفهم. كما أنني حاولت أن أكون هادئاً قدر المستطاع. لم نستطع أن نتحمل أكثر من ذلك. كان اللقاء عاطفياً جداً لدرجة أنه أثار تعاطف الحارس.

لقد كرروا القول لي : "لا تخاف." "نريدك أن تتحمل."

كما أنني كررت : "لا تقلقوا علي." "معنوياتي عالية."

إستمرت الزيارة ما لا يزيد عن عشر دقائق.

❖ ❖ ❖

تكررت الزيارات ليس من قبل أفراد أسرتي فقط بل من بعض الأصدقاء والأقارب أيضاً. كان كل منهم يُحضر معه بعض الطعام، لذلك لم أشعر بنقص في الطعام، بل على العكس كان في كثير من الأحيان، يفيض عن الحاجة.

❖ ❖ ❖

أذكر أنه بعد إطلاق سراحي من المعتقل، حدثني والدي مسترجعاً ومتذكراً تلك الأيام، أنه عرف من هم الأصدقاء الحقيقيون من خلال فترة إعتقالي. فبعض من كانوا قريبين جداً

منه إبتعدوا عند إعتقالي، بينما بعض الناس غير المألوفين له زاروه وشجعوه. في بعض الأحيان كان يزوره بعض هؤلاء ويعرضون عليه بعض النقود بل ويصرون على إعطائه بعضها، دون التعريف بأنفسهم. يبدو أنه في مثل هذه المواقف الصعبة يُعرف الأصدقاء الحقيقيون من غيرهم. لقد عرف والدي ذلك، ولكن بعد أن أصبح كهلاً وإبيض شعر رأسه.

❖ ❖ ❖

بعد إعتقالي أصبحت والدتي نشطة سياسياً، كما كانت تتقدم المظاهرات. وعلى عكس ذلك فلم تكن قبل ذلك سوى ربة بيت عادية، ولم تكن لها خبرة أو تاريخ بالمشاركة في المظاهرات أو غيرها من النشاطات السياسية. أما الآن وبعد أن إعتقلت أصبحت نشطة جداً، شاركت في المظاهرات التي كانت تطالب بالإفراج عن المعتقلين.

في هذا الوقت كانت زوجتي مازالت في العشرينات من عمرها. كانت فخورة جداً لإعتقالي.

❖ ❖ ❖

اللجنة القيادية

بعد ثلاثة أيام تم نقلي من القبو إلى زنزانة في السجن. كان هناك عشر زنزانات في هذا الجزء من السجن. وكانت كل هذه الزنازين مخصصة للسجناء السياسيين إلا أن عدد المعتقلين السياسيين كان كبيراً جداً، لذلك وضع بعضهم في زنازين وحجرات

في أجزاء أخرى من السجن. كانت الحجرة التي نقلت إليها صغيرة جداً، بها شباك صغير. كان يوجد بها حوالي 20 معتقلاً.

لقد كانت قدرة إستيعاب السجن تصل إلى حوالي 800 شخص، إلا أنه حُشر فيه ما يصل إلى 2000 معتقل وسجين، معظمهم كانوا سجناء ومعتقلين سياسيين.

❖ ❖ ❖

- صورة نادرة من سجن المحطة. نشرت عام 1971 في النشرة الداخلية للسجن. المؤلف يظهر في أقصى يمين أسفل الصورة، بالنظارة.

بالطبع كان هناك العديد من السجينات والمعتقلات الإناث كذلك، كان هناك حوالي 100 سجينة ومعتقلة في ثلاث زنزانات، وقد واجهن مشكلات عديدة لأنهن كن إناثاً، إلا أنهن قد تبوأن قيادة سجن النساء من بين النزيلات الأخريات.

❖ ❖ ❖

كان ما يقرب من 10% من نزلاء هذا السجن هم السجناء العاديون المتهمون بأعمال سرقة أو من هم على صلة بالمخدرات أو ما شابه ذلك. كما أن بعضهم قد قبض عليه بتهمة التجسس لإسرائيل، وهناك رأيت منظراً غريباً جداً، ففي أثناء تناول الطعام كنا نجلس في مواجهة بعضنا البعض و نتناول الطعام من نفس الطبق نحن الذين يقاتلون إسرائيل نواجه من صدرت الأحكام ضدهم بتهم التجسس لصالح إسرائيل، وجهاً لوجه. هذا وجه آخر غريب للمأساة.

ومما تجدر الإشارة إليه أننا في سجن المحطة قد نجحنا في دفع السلطات للإعتراف ببعض الإمتيازات لنا من خلال النضال.

لقد شكلت لجنة قيادية للتوجيه داخل السجن. كنت أحد أعضاء هذه اللجنة. كان حوالي 85% من السجناء والمعتقلين من فتح. لم يكونوا من عمان فقط، بل من العديد من المناطق والمدن والبلدات والمخيمات الأخرى. أما الباقي فقد كانوا من تنظيمات فدائية أخرى غير فتح.

لقد كونا لجنة للتوجيه في السجن من ممثلين من مختلف التنظيمات الفدائية الفلسطينية. كانت هذه اللجنة مسئولة عن السجناء والمعتقلين في العديد من المجالات.

فمثلاً أنشأنا نوعاً مما يمكن أن نسميه " مدرسة الكوادر"، وبدأنا نثقفهم سياسياً. كما قمنا بتدريس اللغتين الإنجليزية والعربية لأولئك الذين لم يكونوا يقرؤون ويكتبون بهاتين اللغتين. كما كنا نوزع كميات صغيرة من النقود والسجائر على المساجين

والمعتقلين مستخدمين مدخراتنا الشخصية أو الأموال التي كانت ترسلها إلينا فتح من خارج السجن. كما كنا ندخل الجرائد وأجهزة الراديو الصغيرة إلى السجن بشكل منتظم. فمثلاً كانت أمي تحضر لي الطعام في صينية، وكانت تخفي بعض الجرائد والمجلات تحت الصينية. كانت تنجح في المرور عبر نقاط التفتيش. كما كانت تُخبئ أجهزة الراديو وبطارياتها داخل الدجاج المحشو بالرز، وذلك بلفها بأكياس من البلاستيك ووضعها وسط حشوة الرز.

كنت أقوم بإستمرار بكتابة الرسائل من داخل السجن إلى الخارج. حيث كنت أضعها في عقود من "الحجب" المصنوعة من الخرز. كنت أُخبئ تلك الرسائل داخلها. عندما كانت طفلتاي يزرنني كنت أضع هذه العقود بسرعة حول عنق واحدة منهن.

لقد كتبت رسائل لقيادات فتح وغيرهم، وكنت على إتصال مستمر ودائم مع قيادتي في فتح، الذين كانوا في دمشق بسوريا في ذلك الوقت.

في العديد من الحالات كنا ندبر وسيلة لمساعدة بعض العائلات التي فقدت مصدر رزقها بسبب سجن أو إعتقال معيلها.

كما كنا نساهم بحل بعض المشكلات الشخصية الناجمة عن الإعتقال. ففي إحدى المرات إتصلت بزوجتي وطلبت منها أن تزور أسرة أحد المعتقلين لأنه حدث خلاف بين زوجته ووالدته فقامت زوجتي بحل هذه المشكلة.

في أيام وجودي في السجن كتبت كذلك العديد من الرسائل لعائلتي وزوجتي وبناتي وأصدقائي، كتبت لهم عن الحياة في السجن وماذا ينبغي عليهم أن يفعلوه وهكذا. هذه الرسائل كثيرة جداً لدرجة أنه إذا ما فكرت في نشرها فسيكون ذلك في كتاب كامل..

❖ ❖ ❖

فدائيون

لقد أُعدم العديد من رفاقي أثناء وجودي في السجن، مما أحزننا كثيراً.

من بين ألفي معتقل سياسي تم تقديم نصفهم تقريباً للمحاكمات العسكرية، بينما حجز البعض الآخر لفترات طويلة دون محاكمة. وبالإضافة إلى ذلك فإن من قُدموا للمحاكمات العسكرية كانوا معرضين لخطر الإعدام.

كانت غرفة الإعدام شنقاً تقع في السجن بجوار غرفة المكتبة. كان هناك أيضاً باب يربط بين هذه الغرفة والمكتبة، عدا عن الباب الآخر الذي يؤدي مباشرة إلى فناء السجن. كان يوجد لغرفة الإعدام شباك كبير يسمح عمداً برؤية داخلها، عادة ما كانت تجري عمليات الإعدام عند الفجر، حيث كان يؤخذ السجناء أولاً إلى المكتبة للتأكد من شخصياتهم. ومن هناك كان على السجين أن يدخل إلى غرفة الإعدام حانياً رأسه لأن الباب كان قصيراً، مما

يعني أن السجين كان يُهان حتى آخر لحظة في حياته، إلا أن معظم رفـاقنا لم ينحنوا، حـيث كـانوا يدخلون الغـرفـة بثني وسطهم محتفظين برؤوسهم مرفوعة إلى أعلى.

كنا نُخمن يوم الإعدام، ذلك لأن إدارة السجن كانت توجد بالطابق الثاني في المبنى الموجود بمدخل السجن. و في اليوم الذي كان يسبق يوم الإعدام، كانت أنوار مكاتب ضباط الإدارة تظل مضاءة طوال الليل، إلا أننا لم نكن نعلم من الذي عليه الدور في الإعدام، لذلك لم يكن أحد يستطيع أن يخلد إلى النوم في تلكم الليلة.

❖ ❖ ❖

أُخذ أحد السجناء يوما إلى غرفة الإعدام. كان الهدوء يملأ المكان، حيث بزوغ الفجر. كنت أستطيع أن أتبين صوت السقوط عند الإعدام. ففي حالة الإعدام شنقاً يقف السجين على قاعدة المشنقة، ويوضع الحبل حول عنقه، ثم تسحب قاعدة المشنقة من تحت أرجل السجين، والتي يصاحبها صوت قوي ذلك لأن المشنقة تعمل بالقوة الهيدروليكية، وهكذا تتم عملية الإعدام.

كنا نعرف التفاصيل في اليوم التالي للإعدام حيث تنتشر قصة ذلك من زنزانة إلى أخرى. في كل الحالات كان هؤلاء الفدائيون يواجهون الإعدام بشجاعة وروح معنوية مرتفعة. كانوا جميعاً يصيحون عند الدخول إلى غرفة الإعدام: "تعيش فلسطين"، ثم يتحركون إلى المشنقة.

لقد أعدم 13 فدائياً أثناء وجودي بالسجن. كلهم كانوا رفاقاً لنا. كنت قد أكلت طعام الغداء مع إثنين منهم قبل إعدام كل منهما بيوم واحد.

كانت سلطات السجن تقوم بدفن من أعدم دون تصريح من أهله. وفي أحد الأيام أتت إلى السجن أم أحد من أعدموا، في اليوم التالي لإعدامه، وطلبت أن تأخذ متعلقات وملابس إبنها. إلا أننا لم نعطها الملابس حتى لا نزيد من حزنها، ولكن أعطيناها قلادة ذهبية كان يلبسها.

في أحد الأيام قدمت مجموعة من رفاقنا للمحكمة العسكرية، حيث حكم على أحدهم بالإعدام. كانت المحاكمة قصيرة جداً، حيث إستغرقت خمس دقائق فقط. وأثناء عودة من حكم عليه بالإعدام إلى زنزانته بدأت دموعه تنهمر عندما سألناه عن نتيجة المحاكمة. من حسن الحظ أنه كان معي علبة من الشوكولاتة، كانت قد أرسلتها أسرتي لي منذ عدة أيام. فأعطيتها له مشجعاً ومثنياً عليه قائلاً:

"إننا نحسدك لأنك كمن حصل على وسام في الوطنية. يجب أن تكون فخوراً بذلك."

وإقترحت أن نأكل الشوكولاتة مع أفراد الزنزانة، محتفلين بقرار المحكمة بإعدامه.

من المعروف أن أكل الحلويات هي عادة فلسطينية للإحتفال بالمناسبات السعيدة.

عند ذلك تغير مزاجه بالكامل، فالوجه الباكي إنقلب إلى وجه يبتسم.

من حسن الحظ أنه لم يُعدم، ذلك أن حكم الإعدام قد خفف فيما بعد إلى السجن مدى الحياة.

لقد كانت أحكام الإعدام تصدر بالعشرات بل حتى بالمئات، ومعظم من حكم عليهم بالإعدام أو أعدموا كانوا من الفدائيين. وكل معتقل بمن فيهم أنا، كان معرضاً للحكم عليه بالإعدام، إذا ما قدم للمحاكمة أمام المحكمة العسكرية.

في أحد الأيام كانت من مهامنا نحن ثلاثة من نزلاء تلك الزنزانة إعداد الطعام لكل من هم في تلك الزنزانة وكنس وتنظيف المكان، بينما كان البعض الآخر مازال نائماً، في حين أننا نحن الثلاثة إستيقظنا مبكرين لنقوم بما كلفنا به. هنا أتى حارس من حراس السجن باحثاً عني. وهو أكثر الحراس شراسة وصاح موجهاً كلامه إليّ:

" خذ متعلقاتك وتعال معي."

فسألته بصوت هادئ، بعد أن قمت بلف ملابسي الداخلية وبعض المتعلقات الأخرى في بطانية:

"أين سأذهب؟"

إلا أنه بدلاً أن يرد على تساؤلي أخذني معه ودفعني إلى داخل زنزانة إنفرادية.

لم أدرِ ماذا سيحدث لي تالياً. وبينما أنا على هذه الحال في الزنزانة بمفردي، سمعت من الشباك الصغير في أعلى الزنزانة أن رئيس الوزراء الأردني، والذي كان المسئول الرئيسي عن فرض قانون الأحكام العرفية قد إغتيل في القاهرة. لقد تم إذاعة خبر الإغتيال في الراديو، حيث قالت السلطات المصرية أنها قد قبضت على الجاني.

لقد بدأ قلبي يدق بسرعة، وتعجبت في السبب في إختياري أنا شخصياً من بين أكثر من ألفي سجين ومعتقل، ومن ثم وضعي في هذا الحجز الإنفرادي. وإذا كانت مثل هذه الشخصية الكبيرة قد إغتيلت، فلا بد أنهم محتاجون إلى "كبش فداء"، وبأية طريقة. في الواقع أنهم كانوا يستطيعون أن يلفقوا أي شيء يريدونه، لأن الذي إغتيل هو رئيس الوزراء وليس أي شخص عادي.

كنت أستطيع من خلال ذلك الشباك الصغير في أعلى حائط الزنزانة الإنفرادية أن أرى ساحة السجن. كان الحراس يروحون ويجيئون على أسطح الزنازين حاملين بنادقهم الرشاشة. لقد قفزت إلى حرف الشباك، وناديت على زملائي من المعتقلين المتواجدين قريباً من الشباك، ولكن بصوت منخفض قائلاً:

"رجاءاً تحروا عن سبب وجودي هنا."

لقد تعرضت لعنت شديد في ذلك اليوم، من الصباح وحتى المساء.

لقد مُنعت كل اللقاءات مع الزوار خلال الأسبوع التالي لهذا اليوم. إلا أن العديد من الأسر حضروا إلى السجن، كالعادة، وحاولوا مقابلة أقربائهم من السجناء والمعتقلين، لأنهم لم يكونوا يدرون بهذه التعليمات، إلا أنه بعد ذلك سُمح للأهالي بالزيارة، أما في حالتي فإنه لم يُسمح لأسرتي بزيارتي.

كان من المتوقع أن تحدث بعض ردود الأفعال من السلطة على حادث الإغتيال. فلقد كانوا يستطيعون أن يندفعوا إلى الزنازين مطلقين النار لقتل المساجين والمعتقلين. وحقيقة وجودي في الزنزانة الإنفرادية تعني أنه من المحتمل أن أكون أول أهداف عملية الثأر هذه. كنت أتساءل عن الموعد والطريقة التي عرفت بها أسرتي أنني في زنزانة إنفرادية، لم يكن باستطاعتي أن أتصور ما شعروا وأحسوا به في تلك الليلة. في المساء أتت دورية حراسة جديدة. إقترب الضابط قائد الدورية من الشباك الصغير لزنزانتي وقال:

"لماذا أنت هنا؟"

فأجبت:

"كيف لي أن أعرف، إذا كنت أنت لا تعرف. أليس من المنطقي أن تكون أنت تعرف سبب وجودي هنا؟"

ما الذي يحدث؟ لم يرد إلي أي من التفاصيل ولكن أعطوني فقط نتفاً من المعلومات مثل: المخابرات هي التي لديها المعلومات.

على أية حال فقد كان ذلك اليوم أطول يوم في حياتي. وعندما

نودي علي في الساعة الثامنة مساءاً، بدأ قلبي يدق سريعاً لأنه إذا نودي على شخص ما في مثل هذا الوقت فإن ذلك يعني أنه سيعدم في اليوم التالي.

وإستمر الحال على ذلك بضعة أيام. حيث حضرت أسرتي، إلا أنه لم يسمح لها بمقابلتي ولكنني إستلمت الطعام الذي كانوا أحضروه معهم. لقد زاد هذا من قلق أسرتي علي، ذلك لأنه كان يسمح لأهالي السجناء والمعتقلين الآخرين بالزيارة، أما أنا فلا!! بعد ذلك سُمح لي بمقابلة أسرتي ولوقت قصير جداً.

كان أحد الضباط طيب القلب، حيث نصحني بأن أطلب من أسرتي أن تستعلم من مدير السجن عن سبب سجني الإنفرادي. كان ذلك سادس أو سابع يوم من وضعي في الحبس الإنفرادي. حضرت أسرتي مرة أخرى لزيارتي، وكانت الزيارة مسموحاً بها هذه المرة. إلا أنني طلبت من والديّ أن يحافظا على كرامتهما ولا يطلبا شيئاً من مدير السجن فيما يتعلق بحجزي الإنفرادي. لكن علمت بعد ذلك، أنه بعد إنصرافي من لقاء الأهل، تمكن الضابط الطيب القلب من إقناع والدتي أن تسأل مدير السجن عن حالتي. أعتقد أن كل إنسان على وجه الأرض يعرف مدى عاطفة الأمومة.

بعد مرور عشر دقائق، نودي عليّ، وأُخذت إلى الطابق العلوي، حيث مكتب مدير السجن. هناك وجدت أسرتي. ومع أنه موقف لم أكن أرغب في أن أُوضع فيه إلا أنني كنت أتخيل وأتفهم جيداً شعور

أسرتي. لقد قال مدير السجن كلاماً فهمت منه سبب حجزي الإنفرادي حتى الآن. فمن وجهة نظر إدارة السجن أني أمثل قيادة كل السجناء هنا، وعلى ذلك كان لا بد من إتخاذ إجراء ضدي. كان هذا هو السبب في وضعي في الحجز الإنفرادي. لقد شعرت بالإرتياح عندما سمعت ذلك. لقد وعدني مدير السجن بإخراجي من الحجز الإنفرادي ووضعي في زنزانة عادية.

❖ ❖ ❖

لقد واجهت الموت عدة مرات خلال نضالي في حركة التحرير الوطني. كيف لا والموت في سبيل تحرير الوطن هو "شهادة". على بعضنا أن يدفع حياته ثمناً للتحرير. لقد كنت أفكر بهذه الطريقة، فحقيقة أنني كادر من كوادر منظمة التحرير الفلسطينية يعني أن أكون في كل لحظة مستعداً للإستشهاد. بالطبع لم يكن أيٌ منا يود أن يموت، إلا أنه في سبيل تحرير فلسطين لا بد أن أكون مستعداً للتضحية بحياتي ثمناً لذلك.

❖ ❖ ❖

أعتقد أنه في الزيارة الثالثة أو الرابعة لأسرتي، حضرت معهم أيضاً أكبر بناتي. وبالرغم من أنها لم تكمل السنتين من عمرها إلا أنها قالت لي:

"بابا ... لا تظهر على شاشة التليفزيون، لأنني سأبصق عليه إذا ظهرت."

لقد صدمتني كلماتها إلا أنني كنت أيضاً فخوراً بها.

كـان هـذا مـا يدور في ذهن كل أفـراد الأسـرة. ذلك لأنـه في عملية الإستجواب والتحقيق، كانت المخابرات تقدم عن عمد، على شاشة التليفزيون مقابلات مع هؤلاء السجناء الذين كان يُنظر إليهم على أنهم أشـخـاص مـهـمـون. كـانوا يفـعلون ذلك ليـدفـعـوا هؤلاء الأشـخـاص للإعتراف على شـاشـة التليفـزيون. هؤلاء الذين ظهـروا على شـاشـة التلفزيون، مع أنهم قلة، فقـدوا مصـداقيتهم في عيـون الناس. لذلك كنت في غـاية الدهشـة والفـخـر لسـمـاعـي مـا قـالتـه إبنتي الصـغـيـرة. من الواضـح أن ذلك لم يكن رأي إبنتي فـقـط، بل رأي كل أفراد الأسـرة الفخورة بي.

❖ ❖ ❖

لقـد بقـيت في سـجن المحطة عـدة شـهـور فـقـط، ثم نقلت إلى سـجن آخـر، لأن سـجن المحطة إمـتـلأ عن آخـره بالسـجناء السيـاسيين. كان ذلك في نهـاية كانون أول/ديسمبر 1971 أو أوائل كانون الثاني/ينـاير 1972. لست أذكر على وجه اليقين.

❖ ❖ ❖

إلى الصحراء

في أحـد الأيام، نُودي علينـا بمكبـر الصـوت. في ذلـك الوقت لم نكن ندري إلى أين سيـأخذوننا. بدءوا النداء أولاً على مـن حوكمـوا،

أما فيما يتعلق بي فلم أكن قد حوكمت بعد، ومع ذلك نُودي عليّ كذلك. لقد إعتبرت شخصاً خطراً. في اليوم التالي، يوم الرحيل، فهمنا أننا سنذهب إلى معتقل "الجفر".

لقد وضعنا في سيارات نقل غير مغطاة. كان هناك ما يقرب من مائة شخص في كل سيارة. كنا نجلس على ظهر سيارة النقل كل إثنين مقيدي الأيدي مع بعضهما. كان هناك على ظهر كل سيارة عدد من الحراس حادي النظرات يحمل كل منهم رشاشاً، كما كانت توجد سيارتا حراسة أمام وخلف طابور السيارات التي تقلنا. لقد وصلنا إلى الجفر مساء.

لقد ضُربنا بقسوة عندما نزلنا من السيارات ثم أدخلونا المعتقل. عرفنا بعد ذلك أن ضربنا هذه المرة كان أخف من ضرب من سبقونا. إذ أن من سبقونا إلى هذا المعتقل قد ضُربوا بعنف شديد، في أول يوم لوصولهم. لقد كان السجناء والمعتقلون يُضربون بقطع أو زوايا من الحديد أو بأسلاك شائكة، بدون تمييز، وذلك لمدة ساعة أو ساعتين أو حتى ثلاث ساعات. لقد مات خمسة عشر شخصاً جراء كثرة وشدة الضرب وذلك قبل وصولنا بعدة شهور. لقد كان ذلك شيئاً مرعباً. ودُفن هؤلاء في رمال الصحراء خلف أسوار المعتقل.

يقع معتقل الجفر في الصحراء، ويبعد حوالي ستين كيلومتراً عن أقرب طريق رئيسي معبد، والناقلات ذات الدفع الرباعي هي الوحيدة التي تستطيع أن تسير على الطريق غير الممهد الموصل

له. في طريقنا إلى هناك شاهدت سرية من قوات البادية، ذلك أن المنطقة توجد على الحدود فيما بين كل من الأردن والمملكة العربية السعودية والعراق. لقد بدت لي المنطقة وكأنها نهاية الأرض بل نهاية العالم. فلم يكن هناك أسوأ من هذا المكان. لكني كنت مستعداً لمواجهة أي شئ. ولم أكن أخاف أي شئ أسوأ من ذلك.

بالنسبة للسجناء والمعتقلين السياسيين تعتبر هذه المنطقة "منفى". لم يكن هذا المكان يستخدم فقط لإعتقال أو سجن المساجين السياسيين بل لعزلهم تماماً عن المجتمع. لقد نشطت الحركة الوطنية الأردنية في أوائل الخمسينات من القرن العشرين وبدأت السلطات الأردنية في قمعها. كان يرسل إلى هذا المعتقل المعتقلون والنشطاء من الشيوعيين والبعثيين والقوميين العرب، بالإضافة إلى الضباط الوطنيين الأحرار. إلا أنه بعد تسارع وتنامي حركة النضال الوطني الفلسطيني بعد حرب حزيران 1967 تم إطلاق سراح كل السجناء والمعتقلين السياسيين، وأُغلق هذا المعتقل في نفس العام، إلا أنه في عام 1970 تم إعادة فتحه ليستقبلنا.

كان هذا المعتقل يقع في وسط الصحراء محاطاً بأسلاك شائكة. يوجد به برج للمراقبة عند المدخل يتواجد به حراس يحملون البنادق الرشاشة يقومون بالحراسة، وبعد بوابة المعتقل يوجد ساحة كبيرة تربتها حمراء كنا نطلق عليها "الساحة الحمراء".و هناك صف من البركسات المصنوعة من الإسمنت وذات أسطح من الصفيح. عددها ما يقرب من خمسة عشر بركساً

محاطة بجدران مرتفعة. طول الواحد من هذه البركسات حوالي عشرين متراً وعرضه حوالي ثمانية أمتار. كان يوضع فيه ما بين 100–150 شخصاً. وكان العدد الكلي للسجناء والمعتقلين حوالي ألفي سجين ومعتقل.

كانت البركسات ممتلئة عند وصولنا، لذلك قُسمنا إلى مجموعات بين خمسة إلى عشرة أشخاص وتم إرسال كل مجموعة إلى أحد البركسات. لقد وضعت في البركس رقم (2). وحيث أننا وصلنا متأخرين ليلاً لذلك لم نُعطِ أي فرش أو غطاء. طُلب منا أن ننام هذه الليلة وأن نستعير أي أغطية من السجناء والمعتقلين الآخرين. وحيث أن المكان كان صغيراً جداً فلم أستطع، كغيري، أن أنام على ظهري. لذلك نمت كغيري على جنبي.

كان يوجد في البركس رقم (1) حوالي 50 سجيناً جنائياً عادياً كاللصوص مثلاً. إلا أن بقية البركسات كانت تضم سجناء ومعتقلين سياسيين تراوحت أعمارهم ما بين 15 – 70 سنة، إلا أن معظمهم كانت أعمارهم تتراوح ما بين 20 –30 سنة. كانوا من المهندسين والمحامين والصيادلة والمدرسين والطلاب والفدائيين والعمال المهرة من نجارين وحدادين وموظفين ومديري محلات وضباط من الجيش الأردني.

لقد كان السجناء والمعتقلون السياسيون الذين ينتمون إلى الجيش الأردني يعاملون معاملة حسنة. ذلك لأن بعضهم كانت

رتبهم العسكرية أعلى من تلك التي يحملها مدير المعتقل. كما أن بعضاً من الضباط المسجونين والمعتقلين كانوا أصدقاء شخصيين للملك حسين، ومع ذلك فقد عُوملوا بقسوة أثناء الإستجواب والتحقيق، ذلك أن التمرد في الجيش يعني الخيانة. والسبب الآخر في المعاملة الحسنة التي كان يلقاها الضباط المسجونون والمعتقلون تعود إلى حقيقة أن بعض هؤلاء الضباط قد يعودون مرة أخرى إلى الجيش، كما حدث في عدة مرات سابقة. لذلك لم يكن أمام إدارة السجن إلا أن تتعامل معهم بأدب.

كان معظم الضباط والسجناء والمعتقلين يلتزمون بتوجيهات قيادة المعتقلين، ذلك أنهم جميعاً كانوا أعضاء في حركة فتح.

حوالي 80% من السجناء والمعتقلين قد تمت محاكمتهم وكان معظمهم أعضاء في حركة فتح. وكان عدد معتقلي الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين يأتي ثانياً بعد عدد معتقلي حركة فتح. لم يكن هناك سوى عدد قليل من أعضاء الفصائل الفدائية الفلسطينية الأخرى. وحيث أن فتح كانت تبدي الإعتدال، لذا لم يكن الناس يتصورون أن أعضاء فتح سيعاملون بهذه القسوة. إلا أن الوضع الحقيقي كان مختلفاً، فالسلطة الأردنية كانت تخاف أساساً من فتح. ذلك لأن الصدامات والقرارات، سواء داخل المعتقل أو خارجه، كانت تصدر عن قيادة فتح.

❖ ❖ ❖

كان الطعام في هذا المعتقل متواضعاً جداً، فقد كان يعطى لنا كل صباح قطعة من الخبز وفنجان من الشاي وقطعة جبن. أما الوجبة الأخرى فقد كانت توزع حوالي الساعة الخامسة مساءاً، كانت تسمى وجبة الغداء والعشاء. مكونة من قطعة من الخبز وخضار ما مطبوخ بقليل من اللحم وكمية صغيرة من الأرز. كانوا يحضرون هذا الأكل المطبوخ في سطل.

لقد دهشت وصدمت عندما قرأت ما هو مكتوب على الأوراق المعلقة على لحوم الخراف المجمدة، حيث كان مكتوباً عليها تاريخ يتوافق مع تاريخ الحرب العالمية الثانية، مما يعني أن لحم الخراف هذه كانت معدة زمن الحرب

- الرسائل من المعتقل للزوجة والابنتين.

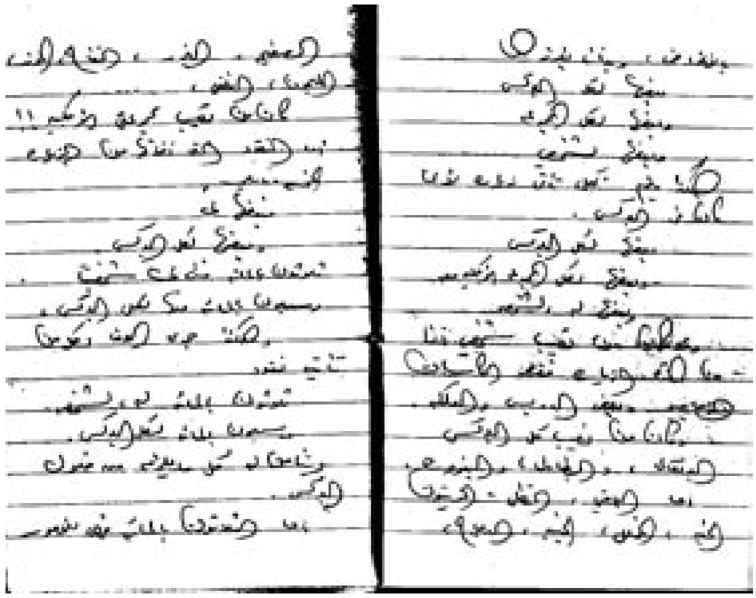

- الرسائل من المعتقل للزوجة والابنتين.

العالمية الثانية، ثم بعد ذلك جمدت وخزنت في مكان ما في أوروبا منذ عام 1939 أو 1940، أي أربع سنوات قبل مولدي، وصدقني لقد رأيت وقرأت هذا التاريخ المطبوع بأم عيني.

إن كمية الطعام لم تكن كافية بالمرة. وكان الطعام الذي يحضره أهلنا إلى المعتقل عند زيارتنا هو مصدر التغذية الأساسي بالنسبة لنا.

لم يكن من السهل على أهلي زيارتي من آن لآخر، ذلك لأن المعتقل كان في الصحراء بعيداً عن عمان، إضافة إلى أن السلطات

دأبت على تقليل السماح بهذه الزيارات، وذلك بهدف عزلنا عما هو خارج المعتقل. لذلك كانت الزيارات محدودة جداً. كانت بواقع زيارة واحدة كل حوالي ثلاثة شهور. وعلى ما أتذكر فإن أسرتي قد زارتني، خلال مدة إعتقالي، ثلاث أو أربع مرات فقط. لذلك كنت أطلب من أسرتي أن تُحضر لي كميات كبيرة من الطعام في كل مرة يزورونني فيها. مثل 10 كيلوجرام من البندورة و 20 رغيف من الخبز المصنوع في المنزل، خمس دجاجات مطبوخة ... وهكذا. كانوا يُحضرون هذا الطعام إلى المعتقل، حيث كان يوجد في كل بركس لجنة تتولى العناية بإستلام الطعام.

لقد إعتدنا كل يوم، بعد وجبة الغداء - العشاء، أن ننظم إجتماعات سياسية. حيث كان يشارك كل فرد في المعسكر في نقاش موضوعات سياسية، وحيث أنه كان هناك العديد من المعتقلين من مستويات ثقافية مختلفة فلقد كنا نتعلم من بعضنا البعض سواء في الإجتماعات العامة أو في الإجتماعات الأصغر. كما تضمن برنامجنا مجموعات دراسة صغيرة متنوعة.

كنا ساعة عقد الإجتماعات السياسية، نكلف أحدنا بمراقبة المدخل، وما أن يرى هذا المراقب إقتراب الحارس من بركسنا حتى يُعطي لنا إشارة، وعندما كنا نراها أو نسمعها كنا نبدأ بالغناء، أو نغير موضوع الحديث إلى موضوع عام لنظهر وكأننا نحادث بعضنا البعض، وتمكنا بذلك من الاستمرار بإقامة وتنظيم إجتماعاتنا

السياسية بعيداً عن أعين الرقيب.

لم يقتصر عملنا على تنظيم وإقامة الإجتماعات السياسية فقط، بل كانت هناك فقرات ترفيه ودورات تعليم القراءة والكتابة باللغة العربية ودروس في اللغتين الإنجليزية والفرنسية كذلك. كان في كل بركس لجنة ثقافية، كانت تحتفظ بالجرائد والمجلات والكتب التي كانت تدخل إلى المعتقل بطرق سرية، حيث كانت تقوم بتوزيعها، كما كانت هذه اللجنة تقوم بالإستماع طول اليوم إلى الإذاعات ومتابعة الأخبار ومن ثم تقوم بتعميم هذه الأخبار علينا جميعاً.

في بعض الأحيان كنا نقوم بإضراب في داخل المعتقل حيث كنا نقوم بتقطيع البطانيات ونعلقها عالياً بعد أن نقوم بإضرام النار فيها ثم نقوم بترديد الشعارات والأغاني الوطنية. كان الحراس لا يستطيعون الإقتراب منا لخوفهم، إلا أنه في بعض المرات كانوا يحضرون معهم قوات عسكرية إضافية كبيرة العدد، خاصة من قوات البادية، ويتعاملون معنا بقسوة شديدة بعد أن يغلقوا علينا أبواب البركسات.

كان نزلاء هذا المعتقل أكثر تنظيماً من نزلاء السجون والمعتقلات الأخرى مثل سجن المحطة. ربما كان ذلك نتيجة لطول مدة بقائهم في نفس المكان. لقد كان في هذا المعتقل لجنة التوجيه القيادية العامة. وكانت تتكون من سبعة أو ثمانية أعضاء، كنت

أحد أعضاء هذه اللجنة. ذلك، كما كان الحال في سجن المحطة، أنني كنت من أعلى كوادر فتح في المعتقل.

كان يندرج تحت لجنة التوجيه العامة في المعتقل عدة لجان للتوجيه في كل بركس يندرج تحتها لجنة ثقافية ولجنة مالية وغير ذلك. كان كل معتقل عضواً على الأقل في أحد هذه اللجان.

كان يصرف لكل معتقل مبلغ من النقود أسبوعياً، كما كانت توزع السجائر على المدخنين. كانت هناك دكان صغيرة في كل بركس. وكان يُعين مسئول عن هذه الدكان من بين المعتقلين.

كانت اللجنة المالية مسئولة عن النقود التي تُعطيها الأسر لأبنائهم أو ذويهم في المعتقل. كان يسمح للمعتقلين الذين كانوا يحصلون على نقود من أسرهم الإحتفاظ لأنفسهم بما مقداره 30% من هذه النقود، ويُعطون مبلغ 70% الباقي إلى اللجنة المالية. وبالطبع فإنهم كانوا يتطوعون بالإبلاغ بصدق عن مقدار النقود التي يحصلون عليها من أسرهم. بالإضافة إلى ذلك كانت هناك بعض الأموال السرية التي كانت تصل إلينا من فتح من خارج المعتقل. هذه النقود كانت تضاف إلى حصيلة اللجنة المالية.

ومع أن معتقل الجفر كان منعزلاً في الصحراء، إلا أنه كانت هناك بالقرب منه قرية تسمى الجفر فيها مشروع لتوطين البدو.

في الأردن يعتبر يوم 15 كانون الثاني من كل عام "عيد

الشجرة"، حيث تعطل المدارس ويذهب التلاميذ إلى الجبال لزراعة الأشجار التي توفرها وزارة الزراعة. وفي طفولتي شاركت عدة مرات في هذا الإحتفال.

وفيما كنت في معتقل الجفر حل عيد الشجرة، وقد أرادت إدارة المعتقل أن تساهم وتساعد في زراعة عددٍ من الأشجار في الصحراء القريبة، فطلبت مساعدتنا. لذلك كان بعض الأفراد الذين إختيروا للمساعدة فرحين لأنهم سوف يتمتعون بالحرية طوال نهار كامل.

طلبت من أحد الذين وقع الاختيار عليهم لهذه المهمة أن يُحضر لي معه شتلتين من شتلات الأشجار عند عودته في المساء. قمت بزراعتهما على جانبي باب البركس وأطلقت على إحداها إسم "مديحة" و على الأخرى إسم "كنانة" وهما اسمي بنتيّ.

❖ ❖ ❖

كنت كل صباح أقوم بري الشجرتين كما لو أنهما بنتيّ. لقد دار بخيالي آنذاك أن هذا المعتقل قد يصبح في المستقبل معتقلاً للنساء. وكنت أتخيل أنه قد يأتي اليوم الذي تُعتقل فيه إبنتاي أو إحداهما في هذا المعتقل فعليه ربما توفر لهما هاتان الشجرتان بعض الظل وتخفف عليهما حرارة الصحراء الملتهبة.

❖ ❖ ❖

عندما تركت المعتقل كانت هاتان الشجرتان في نمو جيد وصل إرتفاع كل منهما إلى حوالي المتر، وبعد بضع سنوات كان أحد أصدقائي معتقلاً في هذا المعتقل أخبرني أن هاتين الشجرتين قد وصل إرتفاع كل منهما إلى ما يقرب من ثمانية أمتار.

❖ ❖ ❖